هذه صفحات من هذا الكتاب المبتكر

مَوَاعِظ

الإمام الغزالي

وقد إستئذناه - حفظه الله - في

تصوير "بعض" صفحات كتبه فأذن جزاه الله خيراً

تصوير

marthad.wordpress.com

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

نشر على موقع الألوكة

مَوَاعِظ

الإمام الغزالي

معالم في التربية والدعوة

مواعظ

الإمام الغزالي

(ت ٥٠٥ هـ)

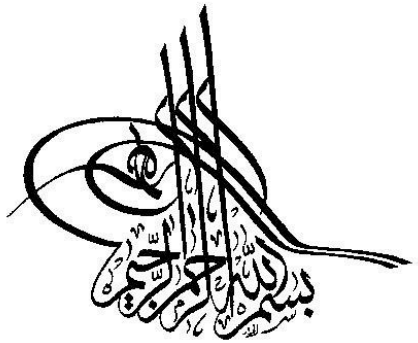

قام بجمعها

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب: ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب: ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب: ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبَعْد:

يعد الإمام أبو حامد الغزالي شيخ المربين. وواحداً من أشهر من عمل في هذا الميدان علىٰ مرّ العصور، تطبيقاً وسلوكاً وتأليفاً.. فكان السابق في هذا المضمار، كما كان المتقدّم في غيره من ميادين المعرفة..

فكان من المستحسن أن تأخذ أقواله ونصائحه وتوجيهاتها مكانها في هذه السلسلة «معالم في التربية والدعوة».

والإمام الغزالي له الكتب الكثيرة التي لها

الصدارة في موضوع «التربية والسلوك» يأتي علىٰ رأسها كتاب «إحياء علوم الدين» فهو أحد المراجع في هذا الباب، ومنها: «منهاج العابدين» و«بداية الهداية» و«ميزان العمل» و«أيها الولد» و«الكشف المبين في غرور الخلق أجمعين».

ومع ذلك، فوجود كتاب صغير، قريب المتناول، يجمع بعضاً من وصاياه ومواعظه، يعد أمراً مستحسناً.. يلبي حاجة من لا يجد الوقت للوقوف علىٰ المطولات أو البحث عن «المفردات» من رسائله..

ولهذا رأيت أن أضم هذا العدد الجديد إلىٰ السلسلة المذكورة، فهو واسطة العقد فيها..

وسوف يكون عرض ما وقع الاختيار عليه من الأقوال والمواعظ في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وفيه نصوص مختارة من كتاب «الإحياء» وكتاب «بداية الهداية» وغيرهما، وسيكون تحت عنوان «مختارات».

الفصل الثاني: وسيكون فيه عرض لرسالة «أيها

الولد» التي تحمل في طياتها الكثير من النصائح والمواعظ التي يحتاج إليها كل مسلم.

الفصل الثالث: وفيه يكشف لنا الإمام الغزالي عن مرض قد استشرىٰ أمره حتىٰ عمّ معظم الناس. وهو مرض «الغرور» والذي أفرده في رسالة عنوانها «الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين» وقد طبعت أكثر من مرة، وهي اختصار للكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب «الإحياء».

ولما كان كل إنسان معرضاً للوقوع في شبكة هذا المرض، رأيت أن يكون هذا الموضوع جزأً من هذا الكتاب، الذي يهدف إلىٰ تصحيح السلوك، وتزكية النفس.

تلك هي العناصر المكوّنة لهذا الكتاب، أردتها نماذج تكون بين يدي القارئ عن أسلوب الغزالي في التربية، ولم أقصد إلىٰ التوسع.. لأن من أراد ذلك سيجد بغيته في كتاب «الإحياء» أو في «المهذب من إحياء علوم الدين» الذي يسّر الله لي إعداده.

هذا وأرجو الله تعالىٰ أن ينفعنا بما نسمع ونقرأ من هذه المواعظ وما ماثلها، وأن يجعل أعمالنا

خالصة له، إنه نِعْم المسؤول، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد الله ربّ العالمين.

٥ محرم سنة ١٤٢٦هـ
١٤/٢/٢٠٠٥م

وكتبه

صلاح أحمد الشامي

نبذة عن حياة الإمام الغزالي

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الطوسي، الملقب بزين الدين، ولد بطوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠هـ.

كان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة وصّىٰ به وبأخيه أحمد إلىٰ صديق متصوف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً علىٰ تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما.

فلما مات أقبل الصوفي علىٰ تعليمهما إلىٰ أن فني ذلك النَّزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما، وتعذر علىٰ الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر

والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرىٰ لكما أن تلجأا إلىٰ مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما علىٰ وقتكما.

ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلوّ درجتهما.

وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبىٰ أن يكون إلا لله.

* * *

قرأ الغزالي في صباه طرفاً من الفقه ببلدة «طوس» علىٰ الإمام أحمد الراذكاني، ثم سافر إلىٰ «جرجان» ليأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، فسمع منه، وكتب عنه، وعلق عنه التعليقة، ثم رجع إلىٰ طوس.

قال الإمام أسعد الميهني: فسمعته يقول: قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إليّ مقدمهم وقال: ارجع ويحك، وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردَّ علي تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك

المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها، ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إليّ المخلاة.

قال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت «طوس» أقبلت علىٰ الاشتغال ثلاث سنين حتىٰ حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع الطريق عليَّ لم أتجرد من علمي.

* * *

ثم إن الغزالي قدم «نيسابور» ولازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) وجدَّ واجتهد، حتىٰ برع في المذهب «الشافعي» والخلاف، والجدل، والأصلين «أصول الدين وأصول الفقه»، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدىٰ للرد عليهم وإبطال دعاويهم.

وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً، أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

وكان شديد الذكاء، سديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قوي الحافظة، بعيد الغور،

غواصاً علىٰ المعاني الدقيقة.. حتىٰ وصفه أستاذه الجويني بقوله: الغزالي بحر مغدق.

قال الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل واصفاً الغزالي في هذه المرحلة من حياته: وجدَّ واجتهد حتىٰ تخرّج في مدة قريبة، وبزَّ الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه، وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين. وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم ويرشدهم، ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلىٰ أن أخذ في التصنيف..

* * *

وقد بقي الغزالي في نيسابور حتىٰ توفي إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ فخرج إلىٰ المخيم السلطاني قاصداً الوزير «نظام الملك»[1] الذي كان مجلسه محطّ

(١) نظام الملك: هو الحسن بن علي الطوسي، الملقب بقوام الدين (٤٠٨ ـ ٤٨٥هـ) وزير عالي الهمة، سمع الحديث. واتصل بـ«إلب أرسلان» فاستوزره، فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، ولما مات خلفه ابنه «ملك شاه» فصار الأمر كله لنظام الملك، وكان من حسنات الدهر.

رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة والعلماء، فناظر الفحول، وقهر الخصوم، وظهر كلامه علىٰ الجميع، واعترفوا بفضله. وظهر اسمه في الآفاق، واشتهر في الأقطار.

وظل في المخيم السلطاني حتىٰ عام ٤٨٤هـ حيث ولي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد. فسار إلىٰ العراق ليقوم بهذه المهمة.

* * *

قدم الغزالي بغداد وقد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فاستقبل بها استقبالاً حافلاً، ودرس بالنظامية، وأعجب الخلق بحسن كلامه وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة.

وقد بلغ أوجّ مجده العلمي في هذه المدرسة، حيث كان يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر العلماء. وعلت حشمته ودرجته في بغداد، حتىٰ كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة، وصار إمام العراق بعد إمامة خراسان، كما يقول معاصره

الثقة عبد الغافر[1].

وفي هذه المرحلة جدَّد المذهب في الفقه، فصنّف فيه تصانيف، وسبك الخلاف فجدَّد فيه أيضاً.. كما صنف في الأصول.

بلغ الغزالي في تلك الأيام قمة المجد، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة.. أتته بالمال والشهرة وذيوع الاسم، كما أتته بالجاه ونفوذ الكلمة.. واستمتع بذلك كله.

ولكنه مع ذلك لم ينقطع عن طلب العلم، فطالع العلوم الدقيقة والكتب المصنفة فيها. مما كان له كبير الأثر في التحول الكبير الذي غير مجرىٰ حياته فيما بعد. ولنترك للإمام الغزالي الحديث. فهو خير من يشرح لنا قصته في هذا التحول:

(١) عبد الغافر بن إسماعيل، خطيب نيسابور وإمامها، كان إماماً حافظاً محدثاً.. ثقة، ولد سنة (٤٥١هـ)، وتوفي سنة (٥٢٩هـ). وقد ترجم للإمام الغزالي ـ وهو المعاصر له ـ ترجمة وافية تعد أصلاً في ترجمات الغزالي. وقد ذكرها ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» عند ترجمة الإمام الغزالي.

«ابتدأت بمطالعة كتبهم مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد..

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلُّم، بل بالذوق والسلوك..

وكان قد ظهر عندي: أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوىٰ، وكفِّ النفس عن الهوىٰ، وأن رأس ذلك كله: قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلىٰ دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة علىٰ الله تعالىٰ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالي: فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب.

ولاحظت أعمالي ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل علىٰ علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا

هي غير خالصة لوجه الله تعالىٰ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أني علىٰ شفا جرف هار، وأني أشفيت علىٰ النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أفكر فيه مدة، وأنا بعد علىٰ مقام الاختيار، أصمم العزم علىٰ الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحلّ العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرىٰ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جنود الشهوة حملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلىٰ المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيلَ الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتىٰ تستعد؟ وإن لم تقطع هذه العلائق فمتىٰ تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم علىٰ الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي

عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليك نفسك. ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حدّ الاختيار إلىٰ الاضطرار، إذ قفل الله علىٰ لساني حتىٰ اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إليَّ فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة..

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلىٰ الله تعالىٰ، التجاء المضطر، الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل علىٰ قلبي الإعراض عن الجاه، والمال والأولاد والأصحاب.

وأظهرت عزم الخروج إلىٰ مكة..»[1].

* * *

(١) «المنقذ من الضلال» (ص١٣٩ ـ ١٤٣) بتقديم الدكتور عبد الحليم محمود.

وهكذا غادر الغزالي بغداد في شهر ذي القعدة سنة ثمان وثمانين، فحج وتوجه إلىٰ الشام. فأقام بها عشر سنين. قضىٰ بعضها في بيت المقدس.

وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة، ورياضة ومجاهدة للنفس، واشتغالاً بتزكيتها، وتصفية القلب لذكر الله تعالىٰ، وكان يعتكف في منارة مسجد دمشق طول النهار.

ويصف معاصره عبد الغافر انقلابه هذا فيقول: «وسلك طريق الزهد والتأله، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوىٰ، وزاد الآخرة، فخرج عما كان فيه.. وأخذ في مجاهدة النفس، وتغيير الأخلاق، وتحسين الشمائل.. فانقلب شيطان الرعونة، وطلبُ الرياسة والجاه، والتخلق بالأخلاق الذميمة، إلىٰ سكون النفس، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والترتيبات، وتزيّا بزيّ الصالحين، وقصر الأمل.. والاستعداد للرحيل إلىٰ الدار الباقية..».

قال: «وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها مثل «إحياء علوم الدين» والكتب المختصرة

منه، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل، التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم»[١].

* * *

ثم عاد الغزالي بعد تلك العزلة التي استمرت عشر سنوات إلىٰ بلدة طوس، ليتابع عزلته سنة أخرىٰ.

وتحت إلحاح الولاة وتكرار طلبهم بالخروج إلىٰ الناس.. خرج إلىٰ نيسابور ليدرس بالمدرسة النظامية فيها وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٩٩هـ وقال في ذلك:

«ويسر الله الحركة إلىٰ نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدىٰ عشرة سنة»[٢].

ويشرح لنا الغزالي عودته إلىٰ التعليم، وأنها كانت بأسلوب جديد، ونية جديدة، وهدف جديد يختلف كل الاختلاف عما كان عليه سابقاً فيقول:

---

(١) «المنقذ من الضلال» (ص٨١ ـ ٨٢).
(٢) المرجع السابق (ص١٥٩).

«وأنا أعلم أني وإن رجعت إلىٰ نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلىٰ ما كان. وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلىٰ العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني.

وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصل إلىٰ مرادي، أو أُخْتَرَمُ دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة؛ أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك لكنه حركني، وأني لم أعمل لكنه استعملني، فأسأله: أن يصلحني أولاً، ثم يصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه»[1].

* * *

(١) «المنقذ من الضلال» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

لم تطل إقامته في نيسابور، وكانت المدة التي درسها في النظامية فيها يسيرة، ثم ترك ذلك قبل أن يُترك، وعاد إلىٰ بيته في طوس، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم، وخانقاه للصوفية، ووزع وقته علىٰ وظائف: من ختم للقرآن، ومجالسة أهل القلوب، وتدريس لطلبة العلم، وإدامة صلاة وصيام..

وكان ذلك بحيث لا تخلو لحظاته ولحظات من معه عن فائدة.

وكان خاتمة أمره، إقباله علىٰ حديث المصطفىٰ ﷺ ومجالسة أهله، ومطالعة «الصحيحين»: البخاري ومسلم. اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام، كما قال عبد الغافر..

توفي بطوس يوم الاثنين الرابع عشر من جماد الآخرة، سنة خمس وخمسمائة، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة بمنّه وكرمه[1].

(١) مراجع الترجمة:
ـ «طبقات الشافعية الكبرىٰ»، لابن السبكي (٤/ ١٠١) وما بعدها. =

ثقافة الغزالي ومؤلفاته:

أما سعة علمه وثقافته فنترك الحديث عنها لشيخ الأزهر المرحوم محمد مصطفىٰ المراغي، حيث يقول:

«إذا ذكرت أسماء العلماء، اتجه الفكر إلىٰ ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ، والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالي، فقد تشعّبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد قدرته، وقيمته، يخطر بالبال: الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه

= - «إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين»، للزبيدي (١/ ٦) وما بعدها.
- «المنقذ من الضلال»، للإمام الغزالي بتقديم عبد الحليم محمود.
- «وفيات الأعيان»، لابن خلكان (٤/ ٢١٦) وما بعدها.

الحر، والغزالي المتكلم، إمام السنَّة وحامي حماها، **والغزالي** الاجتماعي، الخبير بأحوال العالم، وخفيات الضمائر، ومكنونات القلوب[١]، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره. رجل متعطش إلىٰ معرفة كل شيء، نهم إلىٰ فروع المعرفة»[٢].

ومصنفات الغزالي كثيرة، منها:

في الفقه: «البسيط»، و«الوسيط»، و«الوجيز»، و«الخلاصة».

وفي الأصول: «المنخول»، و«المستصفىٰ» الذي اختصره من كتابه: «تهذيب الأصول».

وفي الفلسفة والمنطق والكلام: «مقاصد الفلاسفة»، و«تهافت الفلاسفة»، و«المنقذ من الضلال»، و«الاقتصاد في الاعتقاد»، و«فيصل

(١) واضح من السياق أنه ليس المقصود: العلم بالغيب، وإنما الحديث عن الخبرة والعلم بالدراسات النفسية.
(٢) «الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه»، للدكتور القرضاوي (ص١٨).

التفرقة»، و«قواعد العقائد»، و«المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ»، و«معيار العلم»، و«محك النظر»، و«إلجام العوام عن علم الكلام»، و«جواهر القرآن».

وفي التصوف والتربية والأخلاق: «إحياء علوم الدين»، و«منهاج العابدين»، و«بداية الهداية»، و«ميزان العمل»، و«معراج السالكين»، و«أيها الولد».

وفي الفرق والأديان: «فضائح الباطنية»، و«حجة الحق»، و«مفصل الخلاف».. وغير ذلك.

نكتفي بهذا القدر من الترجمة ومن أراد التوسع فليرجع إلىٰ ذلك في مظانه[1].

(١) وانظر في ذلك «الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة» للمؤلف في سلسلة أعلام المسلمين الصادرة عن دار القلم بدمشق.

شهادات

درجتُ في هذه السلسلة علىٰ ذكر بعض شهادات العلماء بالعلَم المترجَم له لبيان مكانته، واستكمالاً لترجمته، والشهادات للإمام الغزالي أكثر من أن يتسع لها هذا الكتاب، ولكني أذكر نماذج قليلة من هذه الشهادات:

قال الإمام الذهبي:

الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط..

وقال الحافظ ابن كثير:

برع ـ الغزالي ـ في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة، فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم به، وقد ساد في شبابه..

وقال شيخه إمام الحرمين:

الغزالي بحر مغدق.

وقال معاصره الحافظ عبد الغافر الفارسي:

الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، لم ترَ العيون مثله لساناً وبياناً، ونطقاً وخاطراً، وذكاءً وطبعاً.

وقال الحافظ ابن النجار:

إمام الفقهاء علىٰ الإطلاق، ورباني الأمة بالاتفاق، مجتهد زمانه، وعين وقته وأوانه.. قام بنصر السنّة، وإظهار الدين.

وقال الحافظ ابن عساكر:

كان إماماً في علم الفقه مذهباً وخلافاً، وفي أصول الديانات..

وقال العلامة الطرطوشي:

رأيت الرجل وكلمته، فرأيته رجلاً من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول زمانه.

وقال الإمام ابن الجوزي:

صنّف الكتب الحِسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها.

وقال العلامة ابن عماد الحنبلي:

.. وبالجملة: ما رأىٰ الرجل مثل نفسه..

وقال تقي الدين السبكي:

حجة الإسلام.. جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم[1].

---

(١) هذه الأقوال وغيرها في «البداية والنهاية» و«شذرات الذهب» و«طبقات الشافعية الكبرىٰ».

محاور الوعظ عند الغزالي

إن غاية العالم المخلص هي تصحيح المسار في مجتمعه الذي يخاطبه، فمهمة العالم شبيهة بمهمة الطبيب الذي يعالج المريض.. لا بد له من التعرف علىٰ أسباب المرض حتىٰ تكون المعالجة مفيدة والدواء فاعلاً..

ولقد شاع في زمن الغزالي عدد من الأمراض الفتّاكة..

فالفلسفة كادت تسيطر علىٰ الطبقة المثقفة لولا تصدي الغزالي لها وقد استطاع أن يقضي عليها بضربة قاصمة.. لكن أثارها ما زالت..

والباطنية يسرحون ويرتعون، حيث لا يجرؤ أحد علىٰ نقدهم لأن حياته ستكون ثمناً لذلك.. ولكن الغزالي رأىٰ أعظم الجهاد في فضح آرائهم الخبيثة. وأن الشهادة في هذه المعركة ترفع صاحبها ليكون مع سيّد الشهداء حمزة رضي الله عنه فألّف كتابه «فضائح الباطنية»

وغيره.. ليكون السد المانع في وجه ذلك السيل المخيف..

ولعلّ خطر المنحرفين من المتصوفة لم يكن أقل من خطر الباطنية، فكان لا بدّ من مواجهته وبيان ترهاته وشطحاته.. فألف كتاب «إحياء علوم الدين» وغيره من أجل ذلك..

وعلماء العصر فريقان: فريق همّه الدنيا، وهو الذي تقرب إلىٰ الحكام والأمراء.. وفريق آخر سيطر عليه الغرور، فهو مشغول بغروره..

هذه هي الحال حين جاء الغزالي..[1].

ولهذا كانت محاور الوعظ متعددة الاتجاهات في مواجهة تلك الأخطار، نذكر منها علىٰ سبيل الاختصار:

١ ـ التزام الكتاب والسُّنّة:

إن التزام الكتاب والسُّنّة هو الضابط الذي يُبقي

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب «الإمام الغزالي» في سلسلة «أعلام المسلمين» التي نشرتها دار القلم بدمشق.

المسلمين في الاتجاه الصحيح.. ويحفظ عليهم دينهم وأخلاقهم.

وقد كان إلحاح الغزالي عليه كبيراً، فهو في كل مناسبة يذكر بهذا الموضوع.. وكل من يقرأ كتبه يجد ذلك معلماً واضحاً في خط سيره.. ومن أمثلة ذلك:

جاء في رسالته «أيها الولد» قوله: «اعلم أن الطاعة والعبادة، متابعة الشرع في الأوامر والنواهي، بالقول والفعل، يعني كل ما تقول وتفعل، وتترك قوله وفعله، يكون باقتداء الشرع».

وقال: «وينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة».

ويقول في ميزان العمل: «اعلم أن سالك سبيل الله تعالىٰ قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له: الأولىٰ: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة علىٰ حدّ توقيفاته، إيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً..».

فميزان الشرع هو الضابط لكل مسلم..

٢ ـ العقيدة الصحيحة ليست في علم الكلام:

عندما تحدث الغزالي عن العلوم في كتابه «الإحياء» لم يعدَّ علم الكلام علماً وقال:

«اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة، وهي من البدع، وإما مشاغبة بمناقضات.. وتطويل بنقل لمقالات أكثرها ترهات وهذيانات.. مما لا يتعلق بالدين».

ثم بيَّن أن ذلك لم يكن في الصحابة فقال: «فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، كلّهم علماء بالله، أثنىٰ عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام»[1].

فالعقيدة الصحيحة إنما هي في القرآن والسُّنّة.

٣ ـ القواعد الكلية:

حرص الإمام الغزالي علىٰ التوجيه إلىٰ القواعد

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٢ ـ ٢٣).

الكلية، فهي مقاييس يسهل التعامل معها، والرجوع إليها بشأن القيام بأوامر هذا الدين:

ـ فالدين شطران: أحدهما: ترك المناهي، والآخر: فعل الطاعات وترك المناهي هو الأشد..

ـ وأوامر الله تعالىٰ فرائض ونوافل، فالفرض رأس المال، وبه تحصل النجاة، والنفل به الربح وبه الفوز بالدرجات..

ـ ومعرفة الأولويات وترتيبها أمر واجب: فالفروض مقدمة علىٰ النوافل، وفروض الأعيان مقدمة علىٰ فروض الكفاية، وما يفوت مقدم علىٰ ما لا يفوت..

٤ ـ قيمة الوقت:

ينبّه الإمام الغزالي علىٰ قيمة الوقت، ووجوب الحرص عليه، وعدم إنفاقه فيما لا فائدة فيه.

فالوقت هو عمر الإنسان، وكل نَفَس من الأنفاس جوهرة لا تقدر بثمن لأنها إذا فاتت لا تعود.

وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي أن يحرص الإنسان علىٰ وقته فلا يكون قضاؤه إلا في خير.

٥ ـ تزكية النفس:

لقد أولىٰ الغزالي هذا الجانب اهتمامه، وبعد أن كان هذا الموضوع مستقلاً عن الفقه عند من سبقه، فإن الغزالي جمع الأمرين وربط بينهما.. فتزكية النفس ينبغي أن يسبقها فقه في دين الله.. ولعل الترتيب الذي قدمه في كتابه الإحياء يوضح لنا هذا الأمر.

فقد قسّم هذا الكتاب أربعة أقسام:

وفي القسم الأول فقه العبادات، وفي الثاني فقه المعاملات، وفي الثالث الحديث عن المهلكات وفي الرابع المنجيات.

فالاستقامة في العمل بفقه العبادات والمعاملات أولاً، وهذا أمر يتطلّب «العلم» ولذلك كان العلم أمراً أولياً في بدء طريق تهذيب النفس..

ثم تكون الطهارة في اجتناب المهلكات..

وتأتي بعد ذلك «تزكية النفس» بالتعامل مع المنجيات من التوبة والإخلاص والمراقبة والمحاسبة.

إن أمر تزكية النفس هو جلّ ما سوف نقرؤه في هذه المواعظ.

٦ ـ دقائق في فقه تزكية النفس:

لم يكتفِ الغزالي بالعناوين الكبيرة وبيانها وشرحها في هذا الباب. بل ذهب يبحث في أعماق النفس عما يحول دون تزكيتها ونضرب مثلاً لذلك:

فالغيبة ـ التي حرمها الإسلام ـ ليست قاصرة علىٰ اللسان. كما هو المعروف عند الحديث عنها، ولكنها عند الغزالي، قد تكون باللسان، وقد تكون بالتعريض والفعل، والإشارة، والإيمان والغمز، والهمز، والكتابة، والحركة، وكل ما يفهم المقصود.

وقد تكون الغيبة بالقلب، ويوضح الغزالي ذلك بقوله: كما يحرم أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدث نفسك، وتسيء الظن بأخيك[1]..

وأخبث أنواع الغيبة: ما يظهره المرائي علىٰ طريقة أهل الصلاح ليظهر من نفسه التعفف عن الغيبة.. وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول:

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» (٢/ ٨٥) نشرته دار القلم بدمشق.

الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول علىٰ السلطان، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء..

وهكذا ذهب الغزالي يبحث عن الدقائق.. فالتواضع قد يخفي في طيّاته الكبر وقد يكون وراء الزهد حب الشهرة.. وهكذا[1].

٧ ـ العقل والتقليد:

يرىٰ الإمام الغزالي أن للعقل دوراً كبيراً في فهم أسرار التشريع، وإذا كان التزام الشرع ـ الكتاب والسنّة ـ

(١) هذا المسلك في البحث أدى بالإمام الغزالي إلى استنباط دقائق في الفقه لم تبحث إلا في زمننا ـ أي بعد تسعة قرون ـ ومن أمثلة ذلك: حديثه عن ما نسميه اليوم «الملكية الفكرية» حيث يعتبرُ سرقةَ الأفكار «سرقه»، فيقول أثناء حديثه عن المؤلفين..: «ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه، ولعله يحكي ما يستحسنه ولا يَعْزِيه إلى قائله، فينقله كالسارق له، أو يغيره أدنى تغيير، كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق» [«المهذب من الإحياء» ٢/ ٢٢٩].

واجباً، فإن على العقل أن يعمل على فهم الحِكم والأسرار، حتى يكون صاحبه عالماً لا وعاء علم.

ولهذا حصر التقليد بالرسول ﷺ فلا يكون التقليد إلا له، ولأصحابه من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ.

ويرفض التقليد خارج هذا الإطار، لأنه تعطيل للعقل.. ومن عطل عقله لا يكون عالماً.

قال رحمه الله: «إنما المقلد صاحب الشرع ﷺ فيما أمر به وقاله، وإنما يقلَّد الصحابة رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من الرسول ﷺ».

فعلى العالم أن يعرف الحق، وبه يعرف الرجال، وهذا لا يكون بتعطيل العقل..

٨ ـ إصلاح التصوف:

إصلاح التصوف من المحاور الرئيسة التي شغلت الإمام الغزالي، ولذلك بذل جهده في رسم الطريق الصحيح لذلك، حيث يبدأ من العلم.. فالجاهل لا يكون صوفياً أبداً.. وما كتاب «الإحياء» إلا المنهج الذي وضعه لذلك.

ويحذر من الاهتمام بالشطحات والأوهام..

وقد بذل الإمام جهده في بيان انحرافات الصوفية، حتى يحذرها الناس، ويحذروا أصحابها..

ولذلك أرّخ بعضهم للتصوف بما قبل الغزالي، وما بعد الغزالي.

٩ ـ إصلاح العلماء:

العلماء هم قادة الأمة، وورثة الأنبياء، وصلاحهم فيه صلاح الناس، وفي فسادهم خطر كبير على الأمة..

ولذلك كَثُرت أقوال الغزالي في بيان صفات علماء الدنيا وصفات علماء الآخرة والتأكيد على قرن العلم بالعمل، فالعلم وحده لا ينقذ الإنسان في يوم الحساب.

وفي رسالته «أيها الولد» الكثير من بيان مهمة «العالم» وبيان المخاطر والمزالق التي ربما وقع فيها.. و«الإحياء» مليء بذلك.

١٠ ـ الإخلاص:

الإخلاص: هو المحور الذي تقوم عليه التربية

الإسلامية. وقد أمر الله تعالىٰ بإخلاص الدين فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

والإخلاص: تخليص العمل عن الشوائب كلها ـ قليلها وكثيرها ـ حتىٰ يتجرد فيه القصد لله، والتقرُّب إليه، فلا يكون في العمل باعث آخر غير ذلك..

فالإخلاص ينزّه صاحبه عن الرياء والنفاق.. والنظر بعمله إلىٰ الناس.

وقد عمل الإمام الغزالي علىٰ إيضاح هذا المعنىٰ وتقريبه إلىٰ الأفهام بالأمثلة حتىٰ يكون واضحاً بيّناً..

* * *

تلك هي بعض المحاور التي تظهر واضحة في مواعظ الغزالي ورسائله وكتبه، وهناك محاور أخرىٰ سيجدها القارئ الكريم من خلال مطالعته لهذه المواعظ، وكلها تعمل علىٰ انضباط المسلم مع أوامر الله سبحانه وتعالىٰ في ظاهره وباطنه.

الفصل الأول

مختارات

الخشوع

قال أبو حامد:

اعلم أن الخشوع ثمرةُ الإيمان ونتيجةُ اليقين الحاصل بجلال الله .

ومن رزق ذلك، فإنه يكون خاشعاً في الصلاة، وفي غير الصلاة، بل في خلوته.

فإن موجب الخشوع: معرفة اطلاع الله تعالىٰ علىٰ العبد، ومعرفة جلاله، ومعرفة تقصير العبد.

فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليس مختصاً بالصلاة[1].

مسافرون

قال أبو حامد: الناس في هذا العالم سُفر[2].

---

(١) «المهذب من الإحياء» (١/ ١٤٣) نشرته دار القلم بدمشق.

(٢) سفر: جمع مسافر.

وأول منازلهم المهد، وآخرها اللحد، والوطن هو الجنة أو النار.

والعمر مسافة السفر، فسنينه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته.

وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله.

وشهواته وأغراضه قطاع طريقه.

وربحه الفوز بلقاء الله تعالىٰ في دار السلام، مع الملك الكبير، والنعيم المقيم.

وخسرانه البعد من الله تعالىٰ.

فالغافل عن نَفَس من أنفاسه، حتىٰ ينقضي في غير طاعة تُقرِّبه إلىٰ الله زلفىٰ، متعرض في يوم التغابن لحسرة ما لها منتهىٰ.

ولهذا الخطر العظيم، والخطب الهائل، شمر الموفقون عن ساق الجد، وودعوا ملاذَّ النفس، واغتنموا بقايا العمر..[1].

(١) «المهذب من الإحياء» (١/ ٢٧٤).

الطريق إلى السعادة

قال أبو حامد:

أعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي: السعادة الأبدية.

وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها.

ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلىٰ العمل إلا بالعلم بكيفية العمل.

فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال[1].

الشبه بالصحابة

قال أبو حامد:

اعلم ـ تحقيقاً ـ أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلىٰ الحق، أشبهُهم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين.

ولذلك قال علي رضي الله عنه: «خيرنا أتبعنا لهذا الدين»

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» (١/ ٤٦).

لما قيل له: خالفت فلاناً[1].

الطهور شطر الإيمان

قال أبو حامد:

يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان) عمارة الظاهر بالتنظيف، بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريب الباطن، وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار، هيهات هيهات..

فالطهارة لها أربع مراتب:

الأولىٰ: تطهير الظاهر عن الأحداث، وعن الأخباث والفضلات..

الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

الرابعة: تطهير السرّ عما سوىٰ الله تعالىٰ، وهي طهارة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والصديقين.

---

(١) المصدر قبله (١/ ٧٧).

والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها[1].

الصلاة مناجاة

قال أبو حامد:

الصلاة مناجاة، فكيف تكون مع الغفلة؟!

ويروىٰ عن علي بن الحسين ـ زين العابدين[2] ـ: أنه كان إذا توضأ اصفرَّ لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟[3].

كن عالماً لا وعاء علم

قال أبو حامد:

علىٰ العالم أن يكون اعتماده في علومه علىٰ بصيرته، وإدراكه بصفاء قلبه، لا علىٰ تقليد من يسمعه من غيره.

---

(١) المصدر قبله (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) هو الإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي ﷺ، العابد الوفي الجواد.. مناقبه كثيرة.

(٣) «المهذب من إحياء علوم الدين» (١/ ١٢٣).

وإنما المقلَّدُ هو صاحب الشرع ﷺ فيما أقر به وقاله.

وإنما يقلَّد الصحابةُ رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدلُّ علىٰ سماعهم من رسول الله ﷺ.

ثم إذا قلَّد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله، فينبغي أن يكون حريصاً علىٰ فهم أسراره.

وفعله ﷺ لا بدّ أن يكون لسرٍّ فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفىٰ بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم، ولا يكون عالماً[1].

الناس ثلاثة

قال أبو حامد:

الناس ثلاثة:

أحدهم: مثله مثل الغذاء، لا يستغنىٰ عنه.

والآخر: مثله مثل الدواء، يحتاج إليه في وقت دون وقت.

---

(١) المرجع قبله (١/ ٧٦).

والثالث: مثله مثل الداء، لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يبتلىٰ به. وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع، فتجب مداراته إلىٰ الخلاص منه.

وفي مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها، وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه.

فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن.

وقيل لعيسىٰ عليه السلام: من أدبك؟ فقال: ما أدّبني أحد، ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته[1].

آداب اجتماعية

قال أبو حامد:

كن كما قال بعض الحكماء: القَ صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير مذلة لهما، ولا هيبة منهما.

وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة.

---

(١) «بداية الهداية»، للإمام الغزالي (ص١٤٤)، تحقيق أحمد شومان، مكتبة التراث.

وكن في جميع أمورك في أوسطها، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات إلىٰ ورائك.

وتحفظ من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك. وتخليل أسنانك وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك.. وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس، وفي الصلاة وغيرها.

وليكن مجلسك هادئاً، وحديثك منظوماً مرتباً، وأصغِ إلىٰ الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تحدِّث عن إعجابك بولدك وشِعرك، وكلامك وتصنيفك، وسائر ما يخصك.

ولا تتصنع تصنع المرأة في التزيُّن[1].

الدنيا والآخرة

قال أبو حامد:

دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك:

(١) المرجع قبله (ص١٥٤).

فالقريب الداني منهما، يسمىٰ «دنيا»، وهو كل ما قبل الموت.

والمتراخي المتأخر، يسمىٰ «آخرة»، وهو ما بعد الموت.

فكل ما لك فيه حظ ونصيب، وغرض وشهوة ولذة، عاجلَ الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك.

وليس كل ذلك بمذموم:

ـ فما يصحبك في الآخرة، وتبقىٰ معك ثمرته بعد الموت، وهو العلم والعمل ـ العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله..، والعمل: الذي هو العبادة الخالصة لله تعالىٰ ـ فهذا ليس من الدنيا.

ـ وأما ما فيه حظ عاجل، ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً، كالتلذذ بالمعاصي فهذا من الدنيا المذمومة. وكذلك الرفاهية التي تصل إلىٰ درجة الرعونات.

ـ وأما ما فيه حظ عاجل، وهو معين علىٰ أعمال الآخرة، كالطعام، واللباس وكل ما لا بدّ منه للإنسان لبقائه وصحته، فهذا ليس من الدنيا وهو تابع

للقسم الأول، وهو في حكم الوسيلة إليه[1].

لا تصحب

قال أبو حامد:

لا تصحب الأحمق، فصحبته إلىٰ الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك، والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق.

ولا تصحب من ساء خلقه، وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة، ولا تصحب فاسقاً، مصراً علىٰ معصية كبيرة، لأن من يخاف الله لا يصر علىٰ كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله.

ولا تصحب حريصاً علىٰ الدنيا، فصحبته سمّ قاتل، لأن الطباع مجبولة علىٰ التشبُّه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري، فمجالسة الحريص تزيد في حرصك، ومجالسة الزاهد تزيد في زهدك.

ولا تصحب كذاباً، فإنك منه علىٰ غرور، فإنه

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

مثل السراب، يقرِّب منك البعيد، ويبعد منك القريب[1].

الطريق إلىٰ التواضع

قال أبو حامد:

اعتقادك ـ في نفسك ـ أنك خير من غيرك جهل محض.

بل ينبغي أن لا تنظر إلىٰ أحد إلا وترىٰ أنه خير منك، وأن الفضل له علىٰ نفسك:

فإن رأيتَ صغيراً، قلتَ: هذا لم يعصِ الله، وأنا عصيته، فلا شك أنه خير مني.

وإن رأيتَ كبيراً، قلتَ: هذا قد عبد الله قبلي، فلا شك أنه خير مني.

وإن كان عالماً، قلت: هذا قد أعطي ما لم أعطَ، وبلغَ ما لم أبلغ، وعلم ما جهلت، فكيف أكون مثله.

وإن كان جاهلاً، قلت: هذا قد عصىٰ الله

(١) «بداية المجتهد» (ص١٤١ ـ ١٤٣).

بجهل، وأنا عصيته بعلم، فحجة الله عليَّ آكد، وما أدري بِمَ يختم لي؟[1].

الشكر

قال أبو حامد:

في كل نَفَس من أنفاس العبد نعمة الله تتجدد عليه، يلزمه القيام بشكرها.

وأدنىٰ الشكر: أن يرىٰ النعمة من الله تعالىٰ، ويرضىٰ بما أعطاه.

وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر: أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره علىٰ أصغر جزء من نعمه، وإن بلغوا غاية المجهود. لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها.

فيلزمك علىٰ كل شكر شكر إلىٰ ما لا نهاية له[2].

(١) «بداية المجتهد» (ص١٢٣).

(٢) «رسالة منهاج العارفين»، تحقيق أحمد شومان، مكتبة التراث، (ص٢٠).

الإحسان في المعاملة

قال أبو حامد:

قد أمر الله تعالىٰ بالعدل والإحسان جميعاً.

والعدل: سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرىٰ رأس المال.

والإحسان: سبب الفوز، ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرىٰ الربح.

ولا يُعَدُّ من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة.

فلا ينبغي أن يقتصر علىٰ العدل واجتناب الظلم، ويدعَ أبواب الإحسان. وقد قال تعالىٰ:

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧][1].

الآمر بالمعروف

قال أبو حامد:

ينبغي علىٰ الآمر بالمعروف أن يعظ ويخوِّفَ بالله

(١) «المهذب من الإحياء» (١/٣٤٨).

تعالىٰ.. وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه..

وهاهنا آفة عظيمة، ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة، وهي أن يرىٰ العالم عزَّ نفسه بالعلم، وذلَّ غيره بالجهل.

فربما يقصد بالأمر بالمعروف إظهار التميُّز بشرف العلم، وإذلال صاحبه بالنسبة إلىٰ خسة الجهل.

فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر ـ في نفسه ـ أقبح من المنكر الذي يعترض عليه.

ومثال هذا العالم، مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية في الجهل[1].

الصدق القبيح

قال أبو حامد:

قيل لبعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟

قال: ثناء المرء علىٰ نفسه.

---

(١) المرجع قبله (١/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).

فإياك أن تتعوّد ذلك، واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس، ويوجب مقتك عند الله تعالىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم][1].

كلمة حق أريد بها باطل

قال أبو حامد:

إياك أن تقول: إن الله كريم رحيم، يغفر الذنوب للعصاة.

فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل، وصاحبها ملقب بالحماقة، بتلقيب رسول الله ﷺ حيث قال: (الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله الأماني)[2].

واعلم أن قولك هذا يضاهي قول من يريد أن يصير فقيهاً في علوم الدين من غير أن يدرس علماً

---

(١) «بداية المجتهد» (ص١٠٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠) بلفظ: (والعاجز من أتبع نفسه هواها). والكيس: هو العاقل، ومعنىٰ دان نفسه: حاسبها.

واشتغل بالبطالة وقال: إن الله كريم رحيم قادر علىٰ أن يفيض علىٰ قلبي من العلوم، ما أفاضه علىٰ قلوب أوليائه من غير جهد وتكرار وتعلُّم.

وهو كقول من يريد مالاً، فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل، وقال: إن الله كريم، وله خزائن السماوات والأرض..

فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما، وسخرت منهما، وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالىٰ وقدرته صدقاً وحقاً.

فكذلك يضحك عليك أرباب البصائر في الدين، إذا طلبت المغفرة بغير سعي لها، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم][1].

الزهد

قال أبو حامد:

الزهد: عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس.

(١) «بداية الهداية» (ص١١٤ ـ ١١٦).

أما ترك المحظورات فلا يسمىٰ زهداً.

وأن تكون هذه المباحات مقدوراً عليها، فإن ترك ما لا يقدر عليه فلا يسمىٰ زاهداً.

ولذلك لما قيل لابن المبارك: يا زاهد، قال: الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيم زهدتُ؟!

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله علىٰ سبيل السخاء والفتوة.. فذلك من محاسن العادات.. وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلىٰ نفاسة الآخرة.. وترك التزيُّن والتعجُّل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة.. وخوفاً أن يقال لك: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][1].

من كنوز البر

قال أبو حامد:

إن كتمان المرض، وإخفاء الفقر، وأنواع البلاء، من كنوز البر، وهو من أعلىٰ المقامات، لأن

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩).

الرضا بحكم الله، والصبر علىٰ بلائه، معاملة بين العبد وبين الله ، فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا، فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد:

كأن يكون غرضه التداوي، فيحتاج إلىٰ ذكره للطبيب، فيذكره في معرض الحكاية، لا في معرض الشكاية.

أو أن يظهر عجزه وافتقاره إلىٰ الله تعالىٰ.

وإنما يصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهية لفعل الله تعالىٰ والشكوىٰ من الله حرام.

فإن خلا عن قرينة السخط، فلا يوصف بالتحريم، لكن تركه أولىٰ[1].

أوقاتك عمرك

قال أبو حامد:

أوقاتك عمرك، وعمرك رأس مالك، وعليه

(١) المرجع قبله (٢/٣٥٨).

تجارتك، وبه وصولك إلىٰ نعيم الأبد في جوار الله تعالىٰ.

فكل نَفَسٍ من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها، إذ لا بدلَ لها، فإذا فات فلا عودَ له.

فلا تكن كالحمقىٰ المغرورين، الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم، فأي خير في مال يزيد وعمر ينقص.

ولا تفرح إلا بزيادة علم أو عمل صالح، فإنهما رفيقاك، يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك[1].

عماد الصلاة

قال أبو حامد:

عماد الصلاة الخشوع، وحضور القلب، مع القراءة والذكر بالتفهُّم.

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلىٰ العقوبة أسرع.

(١) «بداية الهداية» (ص٦٥).

وقال رسول الله ﷺ: (إن الرجل لينصرف ما كتب له إلا عُشْرُ صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، وسدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها)[1][2].

استقبال القبلة

قال أبو حامد:

إذا استقبلت بوجهك القبلة.. فارفع قلبك عن النظر إلىٰ الدنيا والخلق، وأرسل همتك إليه، فإنه لا يرد الآبق، ولا يخيب السائل.

فإذا قلت: الله أكبر، فاعلم أنه لا يحتاج إلىٰ خدمتك له، وذكرك إياه، لأن الحاجة من جبلة الفقراء، وذلك سمة الخلق، والغنىٰ من صفات ذاته.

وإنما وظف علىٰ عبيده وظائف، ليقربهم بها إلىٰ عفوّه ورحمته، ويبعدهم من سخطه وعقوبته[3].

(١) رواه أبو داود (٧٩٦).
(٢) «بداية الهداية» (ص٨١).
(٣) «رسالة منهاج العارفين» (ص٢٦).

الخوف من الله تعالىٰ

قال أبو حامد:

الخوف سوط الله يسوق به عباده إلىٰ المواظبة علىٰ العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالىٰ.

وفائدته: الحذر، والورع، والتقوىٰ، والذكر، وسائر الأعمال الموصلة إلىٰ الله تعالىٰ.

والخوف إن لم يؤثر في العمل، فوجوده كعدمه.

وإن لم يحمل إلا علىٰ العفة، وهي الكف عن مقتضىٰ الشهوات، فله درجة.

فإذا أثمر الورع فهو أعلا.

وأقصىٰ درجاته: أن يثمر درجة الصديقين، وهذا أقصىٰ ما يحمد منه. وذلك مع بقاء الصحة والعقل.

فإن جاوز هذا إلىٰ الإضرار بالعقل والصحة، فهو مرض يجب علاجه[1].

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٣١١ ـ ٣١٢).

تعجب!!

قال أبو حامد:

من العجائب: أنا إذا أردنا المال في الدنيا: زرعنا وغرسنا واتجرنا، وركبنا البحار، وخاطرنا.

وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا، وتعبنا في حفظه وتكراره.

ونجتهد في طلب أرزاقنا، ولا نثق بضمان الله لنا، ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا!

ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا.

والذي إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا يناديا ويقول:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم].

ثم كل ذلك لا ينبهنا، ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا، فما هذه إلا محنة هائلة، إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح، فنسأل الله أن يتوب علينا[1].

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٣٢٥).

ستر الذنوب

قال أبو حامد:

اللباس نعمة من الله علىٰ عبده يستر به البشرة، ولباس التقوىٰ ذلك خير، وخير لباسك ما لا يشغل سرك عن الله تعالىٰ.

فإذا لبست ثوبك، فاذكر محبة الله الستر علىٰ عباده، فلا تفضح أحداً من خلقه بعيب تعلمه منه، واشتغل بعيب نفسك فاستره بدوام الالتجاء إلىٰ الله تعالىٰ في تطهيره.

فإن العبد إذا نسي ذنبه، كان ذلك عقوبة له، وازداد به جرأة علىٰ المعاصي، ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عيني قلبه نصباً، ولبكىٰ عليه بجفون سره، واستولىٰ عليه الوجل، فذاب حياء من ربه[1].

مراقبة النفس

قال أبو حامد:

لن تصل أيها الطالب إلىٰ القيام بأوامر الله تعالىٰ

(١) «رسالة منهاج العارفين» (ص٢١).

الموضوع	الصفحة
*** الفصل الأول ***	
مختارات	
الخشوع	٤١
مسافرون	٤١
الطريق إلىٰ السعادة	٤٣
الشبه بالصحابة	٤٣
الطهور شطر الإيمان	٤٤
الصلاة مناجاة	٤٥
كن عالماً لا وعاء علم	٤٥
الناس ثلاثة	٤٦
آداب اجتماعية	٤٧
الدنيا والآخرة	٤٨
لا تصحب	٥٠
الطريق إلىٰ التواضع	٥١
الشكر	٥٢
الإحسان في المعاملة	٥٣
الأمر بالمعروف	٥٣
الصدق القبيح	٥٤
كلمة حق أريد بها باطل	٥٥
الزهد	٥٦
من كنوز البر	٥٧

الموضوع	الصفحة
أوقاتك عمرك	٥٨
عماد الصلاة	٥٩
استقبال القبلة	٦٠
الخوف من الله	٦١
تعجب!!	٦٢
ستر الذنوب	٦٣
مراقبة النفس	٦٣
الفرائض أولاً	٦٤
الكبر عند العلماء	٦٥
الإخوان الثلاثة	٦٦
مداخل الشيطان إلىٰ القلب	٦٧
الطهارة من أجل العلم	٦٩
اعرف الحق تعرف أهله	٧٠
الصلاة	٧٠
كيفية النظر إلىٰ الناس	٧١
مرض القلب	٧٢
العمل حسب الأولويات	٧٣
احذر الشكوىٰ	٧٤
الطاعات والمناهي	٧٥
التوسط في أمر الدنيا	٧٦
أوامر الله	٧٧

الموضوع	الصفحة
الزكاة	٧٨
التقوىٰ	٧٩
عقيدة عوام المسلمين	٧٩
تقطيب الجبهة	٨٠
الإخلاص	٨١
موت الذنوب	٨٢
كلمات بليغة	٨٣
*** الفصل الثاني ***	
رسالة أيها الولد	
من جاوز الأربعين	٩٠
العلم حجة علىٰ صاحبه	٩٠
العلم المجرد لا يفيد	٩١
بالعمل ترفع الدرجات	٩٢
إياك والأماني	٩٣
النية في العلم	٩٥
فإنك ميت	٩٥
العمل بغير علم	٩٦
فكّر في آخرتك	٩٦
لو كان يصلي من الليل	٩٧
الطاعة والعبادة	٩٩
موافقة الشرع	٩٩

الموضوع	الصفحة
أصول في تربية النفس	١٠٠
خلاصة العلم	١٠٠
الشيخ المربي	١٠٤
التصوف استقامة	١٠٧
العبودية والإخلاص والتوكل	١٠٨
أربعة ينبغي تركها	١٠٩
أربعة ينبغي فعلها	١١٧
*** الفصل الثالث ***	
الغرور	
حقيقة الغرور	١٢٣
غرور العلماء	١٢٤
غرور العبَّاد	١٣٥
غرور المتصوفة	١٣٨
غرور أصحاب الأموال	١٤٠
الغرور بسماع الوعظ	١٤٤
سبيل التخلص من الغرور	١٤٥

من منشوراتنا

مواعظ الصحابة

رضي الله عنهم

بقلم
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي